بحث عن ذات

لم أعد أطيق البقاء قرب وطنٍ استحوذ جوفه على الأم .. وسيطر قطٌ أرعن أخرق أعور على ساكنيه ..

اتخذتُ قراري .. كان الحل في الهجران .. قررتُ الابتعاد ..

تلك الوحوش البرتقالية كانت وسيلتي لمغادرة المكان .. أوحت لي بوسيلة الفراق في رحلتها اليوم من وإلى الوطن .. تسللتُ إلى جوف إحداها ذات يوم بعد أن أخذ مني اليأس مأخذا عظيما ..

اتخذها بنو قومي وسيلة للفرار من الزعيم .. منهم من وصل لبر النجاة ومنهم من فقدنا أثره وخبره .. لا نعلم هل لفظته تلك الوحوش أم ابتلعته أم أوصلته إلى ضفة النجاة ؟ .

استعنت بحذر القطط .. على الرغم مما يشاع عنا في أمم جاورناها منذ القدم أننا نملك سبعة أرواح .. قررت ألاّ أفرط بأي منها بسهولة ..

ما إن شعرت بهدوء الوحش من تقافزه طيلة الطريق وانسيابه حتى أدركتُ بحسي القططي المرهف أني قد اجتزت الفراغ الفاصل بين الوطن وبين المدينة ..

قفزتُ عند أول سانحة .. استطعت المحافظة على تلك الأرواح السبعة المزعومة إلى أن وصلت لشط النجاة ..

شعرت بالتيه في مكان أجهل تفاصيله وما يمكن أن أواجهه فيه من صعاب .. لكنها كانت خطوة هامة وقطعتها بنجاح ..

جلست في مكمني أفكر في خطوتي القادمة .

القط الذي لا يحسن التدبير يلتهمه الضياع .. يبتلعه التيه .. الويل لمن تاه في بحر التيه .. قد يفقد أرواحه السبعة روح إثر روح وهذا اهون ما قد يتعرض له قط .. أما فقدان هويته فهو الأخطر .. أن تعيش وتتنفس وتأكل كأي كأئن آخر لا فرق بينكما سوى فروة القط التي على ظهرك فهذا هو التيه .. إنه أعظم تيه وأسوأ ضياع .

❖❖❖

أصبح البرميل لا يطاق .. سلطت شمس المكان غيظها وقيظها عليه .. خرجوا منه قبل أن يصبح فرنا متقدا ..

غادروه بحثا عن مكان أكثر برودة .. ساروا مسرعين نحو ظل الجدار المتهالك .. اتخذ الشابان موقع الاستماع .. أخذ بدوره منهم موضع الراوي :

" مر نهاري الأول بعيدا عن وطني بطيئا .. لم أكوّن فكرة عما يمكن القيام به .. كان ذهني خاليا .. وقلبي لا يزال معلقا هنا ..

قرصني الجوع .. خرجت لأسكت غضبته .. كنت أتحرك بحذر .. لا أثر للقطط .. بدأ يتسرب إلي الخوف من القادم .. وجد الإحباط طريقه إلي أيضا ..

لم أتخيل أن أعيش في مكان لا قطط فيه .

هبط المساء .. اقترب الليل ويكاد يغطي بعتمته على كل شيء .. اتخذتُ قراري بالمغامرة .. لم يكن أمامي غير هذا الخيار .. كانت غايتي في ذلك الوقت لقمة أقاوم بها جوعي .. بحثتُ طويلا .. تشممتُ كثيرا .. تحسستُ الأشياء كلها .. كاد يصرعني الجوع دون فائدة .

راقبت الناس وحركتهم .. لا أحد يبالي بقط مشرد جائع ..

كانت تصل إلى أنفي بعض روائح لا أجهل كنهها غير أني لا أعرف مصدرها ولا مخبأها ..

أسدل الليل كامل ستره على المدينة .. إنه الوقت المثالي لتحرك القطط .. تحركت بحرية أكبر .

اكتشفت مصدر الرائحة .. كانت بجواري طوال الوقت .. تصدر من أوعية كبيرة أمام كل بيت .. لكنها كانت محكمة الغلق ..

مر النهار قاسياً والليل محبطاً .. لم يكن الجوع فقط سبب إحباطي .. إنه اليوم الأول في حياتي لا أسمع فيه حسا لقط .

لولا جذوة أمل وبقايا إصرار لعدت أدراجي ..

أن تكون سجيناً في وطن يعترف بك أفضل بكثير من حرية في وطن يتجاهلك لو كنت حراً طليقاً

❖❖❖

تأخر طلوع شمس يومي الثاني .. ساءت حالتي كثيرا .. استعنت على جوعي بخشاش الأرض .. خشيت كثيرا على أرواحي السبعة أن تذهب هباءً منثورا ..

كان عليّ طيلة يوما كامل من مشرق شمسه إلى أفولها أن أمعن التفكير في أمرين وقعت فيهما .. غربتي وكربتي .. بان لي صدق المثال السائر القائل : " القط الجائع لا طائل من ورائه " .. في ذلك اليوم راجعت قائمة الأمثال التي تنطبق على حالتي .. أولها هذا المثل : "بطن خاوية تؤدي بك للهاوية " .. أما المثل الذي يلح علي كثيراً فهو : عقلك بحاجة لقُوتك وقوتك بحاجة لعقلك ..

فوجئتُ من كثرتها وصدقها وانطباقها عليّ انطباق المخلب بالمخلب وتشابهها مع حالتي تشابه القط بالقط .. كان استذكارها ومراجعتها تسليتي وخياري الوحيد إلى أن حل المساء .

في ذلك الوقت اختمر في ذهني قرار المغامرة .. فضياع روح من سبعة أرواح خير من ضياع قط بأرواحه كاملة دون تضحية .. إنها لعمري خسارة فادحة في كل الاعراف وليس في عرف القطط فحسب.

تحينت فرصة السكون لبدء مغامرتي ..

غادرت المكمن الآمن .. تحركت بكل ما تعلمته وورثته عن أسلافي عن الحذر والحيطة وعدم التفريط في الأنفس الغالية .. قفزت إلى أقرب ساتر .. تسلقته .. سرت على أطرافي .. كانت عيناي المرهقتان تبحثان مرة عن مكان آمن لخطواتي وعن ما يسد الجوع ويقوي العزم ..

خرجت من عزلتي إلى عالم الغربة خالي اليدين من أي تجربة .. لا أحمل عن هذا العالم إلا كل سوء وتوجس .

سرتُ بحذر بالغ بحثاً عن شيء لا اعرفه ولا اعلم اين اجده ولا كيف اجده ولا متى أجده .. كنت تائهاً حائراً خائفاً .

في غمرة ذلك رماني أحدهم بشيء ثقيل .. صرخت في فزع .. قفزتُ بحثاً عن مكمن يحميني من المهاجم .. على حياة أجهل كنهها وشكلها ومصيرها .

كان حذاءً ثقيلاً قاسياً عنيفاً .. وقعت في حوض أزهار البيت الذي حاولت التسلل إليه في هربي .. غمرني الوحل .. زادت حالتي سوءً ومعنوياتي هبوطاً ونفسيتي إحباطاً .. فررتُ لا ألوي على شيء .. جريت كثيراً .. قفزت جدراناً عديدة .. أخيراً أخذ مني التعب كل مأخذ .. فقررتُ أن أختبئ في أي مكان .. خصوصاً بعد أن اكتشفت عجزي عن العودة لمكمني السابق ..

من مكمني الجديد وصلت إلى أنفي رائحة مميزة .. أشعرتني أن الفرج قريب ..

ابتسمت لأول مرة منذ غادرت الوطن .

❖❖❖

كانت رائحة قطة تفوح في المكان ..

سررتُ كثيرا لهذا الاكتشاف .. شعرتُ أنها القشة التي عليّ التشبث بها للخروج من بحر الإحباط .. ها هي أخيراً أمواجه المتلاطمة تركن للهدوء والسكينة .. أرجو أن لا يكون الهدوء الذي

يسبق العواصف .. على أن لا أكون قطاً متشائماً .. التفاؤل هو خياري الوحيد المتاح .

ملأتُ تلك الرائحة كل كياني .. بالكاد استطعتُ السيطرة على أرواحي السبعة المنهكة .

حاولت أن أتبين مصدرها .. فصعب علي ذلك لما أعانيه من جوع وخوف وقلق .

لم يطل الأمر كثيراً ..كانت قد اشتمت رائحتي في المكان أيضاً .. ملأها الفضول .. تلصصت من نافذة في أعلى البيت .. كانت آية آية في كل شيء .. لم أرَ قطة في حياتي مثلها .. لم أرى عيننين في اتساع عينيها ولا خفة في تحريك ذيلها مثل ما تفعل .. كما أني لم أشم رائحة أزكى من هذه الرائحة التي تنبعث منها .. كما أن لفروتها البيضاء الناصعة جمالاً لم ارى نظيراً لها .. كل هذا امكنني رؤيته وتحسسه من مكاني المعتم .. فالضوء المنبعث من النافذة زاد من سحرها وفتنتها .

فقدتُ توازني .. ترنحت .. فقدت السيطرة على ارواحي السبعة دفعة واحدة .. لمحتني رغم شدة العتمة .. أشارت لي تحذرني .

بعد أن سكن المكان .. قفزت من نافذتها إلى الحديقة .. كانت رشيقة أيضا .

وقفت أمامي .. لُجم لساني كأنه عُقد بألف عقدة .. لا أعلم هل الجوع ما أخرسني أم الخوف أم جمالها ؟ .. لابد أنه جمالها الطاغي ورائحتها المسكرة .

هيئتي كانت تغني عن السؤال والجواب .. قفزت من جديد من حيث أتت .. خشيت أن تكون نهاية مغامرتي قد حلت .. تأكدتُ من أرواحي السبعة .. وجدتها على حالها سليمة معافاة لكنها لم تعد كما كانت قبل دقائق .. حمدت الله على هذه النعمة .

عادت بقفزة أخرى بعد لحظات أكثر رشاقة وحماسة .. هذه المرة كانت تحمل معها أشياء تفوح برائحة لذيذة أنعشت لي ستة من أرواحي .. ابتسامتها المشرقة أثارت أيضاً في أحد أرواحي السبعة شيئاً غير الجوع .. إنه أشبه بالجوع .. لكنه ليس جوعاً تسده لقم الطعام .. بل جوع للحنان والعطف وربما الحب .

التهمتُ الزاد القليل بشراهة .. أثناء تناولي للذيذ طعامها القليل تكفلت بأن مسحت عن جسدي المنهك الوحل .. شعرت بأحمالي تُزاح وأثقالي تذوب عن كاهلي دفعة واحدة .

أشرقت شمس الأمل لتذيب جليد الاحباط الذي سد أفقي قبل قليل .. تنفست الصعداء ..

قبل أن تغادرني طلبت مني أن أكون على حذر وألاّ أتحرك من مخبئي إلى الليلة القادمة .. قفزت برشاقة تحسد عليها .. أشارت لي بقبضتها الناعمة من نافذتها مودعة .

تذكرت أمي فبكيت تلك الليلة كثيراً قبل أن أخلد للنوم .. تذكرت صديقي الشاعر وقصيدته الشهيرة مواء .. رددت أبياتا منها قبل أن يستولي علي النوم بين أحضانه :

مواء موا مواء مواء ما ينقص قطتنا سوى المواء

لتلقى عيشاً هنياً فليس من سبيل سوى بالمواء